

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا بحث كتبتّه تحية لذكرى أستاذى وشيخ المؤرخين العرب فى عصرنا محمد شفيق غربال ، أفسح الله له فى رحاب الجنة ، وأحسن جزاءه بقدر ما خدم التاريخ ونفع الناس بعلمه وجهده .

درست فى هذا البحث تقليد مشيخة العصر فى الأندلس منذ الفتح إلى نهاية عصر الموحدين ، أى إلى قرابة منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . وقد كانت مشيخة العصر تقليداً جميلاً جرى عليه أهل العلم فى الأندلس ، فاختر أهل كل جيل من بينهم شيخاً لهم من أهل الصلاح والتصاون والخير والصدق فى طلب العلم ، والصبر على إسماعه إلى السن العالية ، واتخذوه إماماً لهم ، وشدوا إليه الرحال للأخذ عنه والسماع عليه . لم يحفزهم على ذلك الاختيار حافز من سلطان أو مطلب من مطالب الدنيا ، وإنما هو الإخلاص للعلم ؛ حباً فى الله تعالى ورسوله ودينه الحنيف .

وقد اجتهد الشيوخ فى الأندلس فى المحافظة على ذلك التقليد ، وحافظوا بذلك الاجتهاد على المثل الأعلى للمعلم والمتعلم كما صوره واحد منهم هو أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري فى بعض فصول كتابه المسمى « جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغى فى روايته وحملته » .

وقد أوجزت الكلام فى هذا البحث واقتصرت فى ذكر مراجعه على ما مسّت إليه الحاجة ، وذلك حرصاً على الفكرة الرئيسية فيه من أن تضيع فى فيض التفاصيل وأثقال التعليقات .

رحم الله شيخنا محمد شفيق غربال ، وأعاننا على حمل أمانة العلم التى حملها عمره كله ، ووصل بجهد الصادق وخلقه الكريم تقليد السالفين من خدم العلم فى أجيالنا الماضية ، رحمهم الله أجمعين .

مدريد فى ١١ نوفمبر ١٩٦٥

د . حسين مؤنس

تمهيد

على طول تاريخ الأندلس كان الجانب الدينى من بناء الدولة والمجتمع من المميزات الظاهرة لذلك البلد الإسلامى . حقيقة أن العنصر الدينى جزء لا يتجزأ من حياة الناس فى كل بلد إسلامى آخر ، وأن الحاكمين والمحكومين كانوا يتحرّون جهد الطاقة أن تكون تصرفاتهم مطابقة لتعاليم الدين أو متمشية معه على الأقل ، وخاصة فى بلاد الخلافة العباسية خلال العصر الأول من تاريخها ، ولكن الجدير بالملاحظة فى الأندلس هو أن ذلك الالتزام الدينى لم يترك لضمير الحكام أو تقديرهم ، وإنما أخذ شكلاً واقعياً فى صورة علماء وفقهاء يقفون إلى جانب الحاكم ويشاركونه فى الحكم بصورة فعلية ، بحيث يبدو - أمام الناس على الأقل - أن الجانب الدينى من أعمال الدولة يشرف عليه علماء دين عارفون بشئون العقيدة ، وأن لا خوف - نتيجة لذلك - من انحراف الدولة عن قواعد الدين الحنيف .

ومهما كان رأى رجال العلم المتحقيقين فى رجال مثل عبد الملك بن حبيب ، وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى الليثى - فإن أمثال أولئك الرجال قاموا بوظيفتهم فى بنىان الدولة الأموية الأندلسية ، وأضفوا على تصرفاتها فى نظر الرعية تأييداً حقيقياً كان له أبعد الأثر فى تثبيت دعائم أركانها ، وتمكينها من السيطرة الفعلية على بلادها ، وتمتع البيت الأموى الأندلسى بثقة الشعب الذى كان يحكمه ، وهى ثقة لم يظفر بمثلها الأمويون فى المشرق ، ولا العباسيون خلال عصرهم الذهبى .